

عزلة القراءة

عندما أنقذني الكونت دي مونت كريستو

■ علي حسين

• هناك من لا يستطيع تخيل العالم بلا طيور، وهناك من لا يتخيل العالم بلا ماء، أما بالنسبة لي، فأنا غير قادر على تخيل العالم بلا كتب.

بورخيس

عند سؤال الشاعر الفرنسي بول فاليري حول الحالة المثالية التي يتفرغ فيها للقراءة.. قال هناك فرق بين أن نرى شيئاً ونحن نمسك كتاب، وبين أن نراه دون ذلك: مجرد فتحنا لصفحات الكتاب يمكنه أن يمنح أفعالنا رؤيا جديدة. فاليري يحذرنا من مخاطر القراءة التي لا تنتج شيئاً: أنتني لا أبحث في الكتب، إلا عما يسمح لكتاباتي بأن تفعل شيئاً ما.

كان المطبخ المكان المناسب الذي يقرأ فيه وليم فوكر كتبه: كنت أفضل أن أبقى في منزلي، في مطبخي مع كتبتي وعائلتي من حولي، ويديا تلاعبان الأوراق. كان فوكر يضيئ ساعات طويلة بين القراءة والكتابة أمام طاولة صغيرة أهدتها له أمه، حيث يستيقظ في الرابعة صباحاً، ينزل من غرفته الكائنة بالطابق الأول من البيت، ويجلس إلى الطاولة المدمجة بالكتب

والأوراق، يحب ارتداء ملابسه الكاملة وهو يقرأ أو يكتب، يفتح النافذة المظلمة على الحديقة، يبقى لساعات طويلة منغمساً بالقراءة والكتابة. يحرس على الاحتفاظ بخصوصياته، وعندما حصل على جائزة نوبل عام 1949 وادعت شهرته، دفع الصحافة والنقاد ومحبي الأدب إلى الذهاب إلى منزله أملاً في رؤيته والتعرف على فوكر الكاتب اليومية، مما اضطره لأن يبني جداراً عالياً أحاط به منزله من أجل أن يحافظ على حياته الخاصة، لم يكن يريد لأي أحد أن يزججه في خلوته، يواصل الكتابة والقراءة: "ساستمر على هذا الحال إلى نهاية عمري، وأتمنى أن اتلاشى من حياة الآخرين وأحذف من التاريخ من دون أن يترك لي أي أثر ما عدا كتبتي".

كثيراً ما يفتاح الروائي والمترجم جيرا إبراهيم جيرا، بسؤال زوار بيته وهم ينظرون إلى المكتبة التي انتشرت على الحيطان لتأخذ حيزاً كبيراً من البيت: هل قرأت كل هذه الكتب، وتكون اجابته التي تعود أن يقولها لقد إطلعت عليها كلها.. لم يكن الكتاب بالنسبة لجيرا سوى ضرب من العشق وهو يحفظ مقولة فرنسيس بيكون الشهيرة "بعض الكتب وجد لكما يذاق، وبعضها لكما يبتلع، والبعض القليل لكما يمتص ويهضم" يتذكر جيرا ماراه عن د.ه. لورنس عندما دخل يوماً إلى مكتبة اكسفورد وكانت تحوي مائة ألف كتاب وفي ثلاث سنوات من الدراسة تعرف عليها جميعاً هذا التعرف بمفهوم جيرا هو أساس الكثير من المعرفة، وهو الذي يدل القارئ إلى الاتجاه الذي عليه أن يسير فيه لطلب المزيد من المعرفة.. لساناً نتذوق الكتاب او نبتلع بعضه او نمضغه ونهضمه ببطء في كل الأحوال نحن نعيش حالة عشق لاتملها النفس يكتب جيرا في مقال بعنوان عشق من نوع آخر يقول: "كانت تراودني فكرة اشبه بالحلم فكرت في كتابتها منذ اكثر من اربعين سنة، وهي عن رجل كان يعشق الكتب اشتري بقة نائية على كتف عال لثلة صخرية مشرفة على واد كبير التعرير والشعاب، وبنى عليها فندقاً جميلاً يجتذب الناس اولئك الذين يريدون الاختلاء بالطبيعة البعيدة عن ضوضاء المدن طلباً



الكسندر دوماس الأب

• وانت ماتزال صغيراً كنت حريصاً على أن تقررا الكثير من الكتب، عبط وقتنا لهذا أكثر مما تعطي لأي شيء آخر.

الروائية البريطانية زادي سميت

ذات مرة كتب الروائي الاميركي أرسكين كالدويل: "دائماً ما تصبح الكتب التي أقرأها جزءاً من تجاربي الشخصية، وأتخيل أنني عشتها". ولعله يقصد أنه يحاول أن يعيش تلك التجارب التي استمدتها من الكتب، ويتبناها يوماً بعد آخر بحيث تصبح جزءاً من عالمه الواقعي. ومع هذا يظل السؤال ماذا نقرأ؟ ربما تكون مقلي قد قرأت ذات يوم نصيحة غوستاف فلوبير التي يقول فيها: "لا تقرأ مثل الأطفال، من أجل المتعة، ولا مثل الطموحين، بغرض التعلم، لا، اقرأ كي تعيش". ولعل معظمنا يبدأ أولى خطواته في القراءة منطلقين من الفضول لمعرفة ماذا تخبي هذه الصفحات، وكثير من القراء يؤمنون بمقولة: اقرأ من أجل المعرفة. يخلصنا الفيلسوف ديكارت بإعادة قوائم لتحديد الكتب التي يجب أن نقرأها، كتمرين من تمارين العقل واستكشاف العالم ويكتب هذه النصيحة: "إن قراءة الكتب هي بمثابة محادثة مع أفضل الشخصيات من القرون الماضية"، كان ديكارت مصاباً بأمراض في الصدر، وكان الأطباء ينصحونه بإراحة جسمه، فاجازوا له البقاء في الفراش طويلاً، ما ساعده على الاهتمام بقراءة الأدب الكلاسيكي او كما يخبرنا هو: "لأقوم بجولات فأخذ بطرف الحوار مع النبلاء في الماضي السحيق الطاعنين في السن".

تمثل القراءة إحدى أجمل ذكرياتي في الصغر، وكل شيء بدأ عندي أشبه برحلة، ذات يوم احدى مناطق بغداد، اخذتني قدامي الى مكتبة يملكها أحد أقاربي يبيع فيها الكتب والمجلات والصحف، في ذلك النهار وأنا أتجول بين العناوين وصور الأغلفة الملونة، اكتشفت إن هذا المكان يمكن أن يصبح كل علمي.. عندما استرجع كيف قضيت سنوات طويلة من عمري في رفقة الكتب، أتساءل أحياناً إن



كانت هذه الكتب غيرت حياتي، أم أنها سجننتني في عوالم مثالية وخيالية. كنت وأنا أدخل المكتبة، التفت باتجاه الرفوف التي تحوي مئات العناوين، وأشعر ان هذه الكتب تنظر ألي وإنها تعرف عني أكثر مما أعرف عنها، وأحياناً أتخيل ان كل كتاب يخفي داخله عالماً سحريراً لانهاية له.. وفي المكتبة وقع في يدي ذات يوم كتاب مجلد بشكل جميل غني بالرسوم الملونة ومطبوع على ورق من نوعية فاخرة عنوانه "المعرفة" فيه الكثير الموضوعات التي لم أفهمها، لكن ذلك لم يكن هدفي، في واحدة من صفحات المجلد لاحظت لي صورة رجل لديه لحية كثرة اسمه داروين، كانت عيناها تنتقل بين صورة الرجل الملتهق وبين سطور الكلمات التي أحاول أن أحصل الغايات ووجدت نفسي وأنا ألتهم السطور منشغلاً بسؤال محيرٍ يطرحه صاحب هذه اللحية البيضاء: من نحن؟ هل ولدنا أم إننا جئنا نتيجة بذور غرست في الارض، أم نتيجة لبيضة مفقوسة أم إننا خرجنا الى من الغرفة، أم إننا سقطنا من السماء وربما تكون قد عشنا ثم واقتنا المنية أو تلاشنا أو تحططنا وتكرنا؟ لم أجد إجابات لأستلثني وحين اكتشف صاحب المكتبة حيرتي نصحني بالابتعاد عن مثل هذه الموضوعات الشائكة، فأنا ما زلت صغيراً، وربما في المستقبل اربعمائة صاحب مجلة، وكتب للمسرح مئة مسرحية، مثلت جميعها في زمنه، وقامت بإداء ادوارها ممثلات معظمهن وقعن في أسر شخصيته المرحلة، ربح من وراء كتبه أكثر من مليون جنيه استرليني، انفقها جميعها على ملذاته، وحين حاصرته الديون قررت إحدى المعجبات به ان تشتري ديونه كي لا يدخل السجن، ثم ساومته بين قصص الزواج أو قضبان السجن، فقرر في النهاية ان يرضخ لطلبها ويتزوجها.

في شخصية صاحب المكتبة محفزاً لي على اختيار ما أريد قراءته، ولهذا كنت سعيداً حين لدني ذات يوم، على سلسلة من الروايات المصورة: وقد جذبني كتاب كان يمتلي بالرسوم الملونة عنوانه "الكونت دي مونت كريستو" أما مؤلفه فمكتوب اسمه على الغلاف وبالألوان الروائي المشهور الكسندر دوماس.

كان هذا أول عهدي بالروايات، لم اسمع بأسماء الذين يروي الكاتب حكاياتهم، ولا أعرف معنى "مونت كريستو"، وما الذي يمكن أن تنفعني مغامراته؟ لكن الحكاية استولت على عقلي، وأتذكر إنني قرأته خلال يومين، أتصدد على فراشي وأعيد قراءة الصفحة الواحدة أربع أو خمس مرات لأفهم مغزى القصة.

بعد سنوات تعرفت جيداً على صاحب الرواية "الكسندر دوماس الأب" تميزاً له عن ابنه حاصل الاسم نفسه "الكسندر دوماس الابن" مؤلف الرواية الشهيرة "غادة الكاميليا". واكتشفت إن هذا المؤلف الذي عاش ثمانية وستين عاماً - ولد في الرابع والعشرين من تموز عام 1802 - كانت له عادات غريبة، يتباهى بان له أكثر من مئة ابن غير شرعي، ويؤكد في كل مناسبة انه لن يتزوج، ويقال انه كان لا يري إلا وهو يتأبط كتاباً، صاحب مزاج خاص في الكتابة، ويذكر كاتب سيرته انه كان يكتب قصصه على ورق ازرق، أما اشعاره فيستخدم لها الورق الاصفر، ويخصص الورق السوردي لكتابة مقالاته السياسية اللاذعة، يعانى من مرض الدوار، لا يستطيع القراءة والكتابة وهو جالس على منضدة، وإنما وهو متمدد على بطنه، يوضع تحته وسائد عديدة، وبرغم هذه النزوات، فقد أصدر أكثر من اربعمائة مجلد، وكتب للمسرح مئة مسرحية، مثلت جميعها في زمنه، وقامت بإداء ادوارها ممثلات معظمهن وقعن في أسر شخصيته المرحلة، ربح من وراء كتبه أكثر من مليون جنيه استرليني، انفقها جميعها على ملذاته، وحين حاصرته الديون قررت إحدى المعجبات به ان تشتري ديونه كي لا يدخل السجن، ثم ساومته بين قصص الزواج أو قضبان السجن، فقرر في النهاية ان يرضخ لطلبها ويتزوجها.

في ذلك الوقت اعتقدت انني أستطيع الحصول على أي كتاب لأن المكتبة لاتبعد عن بيتنا سوى عشرات الأمتار، ثم إنني وجدت

تمثل القراءة إحدى أجمل ذكرياتي في الصغر، وكل شيء بدأ عندي أشبه برحلة، ذات يوم احدى مناطق بغداد، اخذتني قدامي الى مكتبة يملكها أحد أقاربي يبيع فيها الكتب والمجلات والصحف، في ذلك النهار وأنا أتجول بين العناوين وصور الأغلفة الملونة، اكتشفت إن هذا المكان يمكن أن يصبح كل علمي.. عندما استرجع كيف قضيت سنوات طويلة من عمري في رفقة الكتب، أتساءل أحياناً إن

لا تشغله قضية سوى وضع الخطط للهروب من جحيم السجن واثبات براءته والانتقام من الذين ظلموه. ويفضل مساعدة يقدمها صديقه الأب فابريس الذي يخبره قبل موته بمكان وجود كنز يمثل ثروة هائلة، في جزيرة مونت كريستو. يتمكن إدمون من الهرب، وبعد مغامرات وأهوال يحصل على الكنز، فيقرر العودة الى الحياة العامة بهيئة جديدة واسم جديد "الكونت دي مونت كريستو" الثري الذي لا يعرف أحد شيئاً عن حياته الماضية، ويبدأ بوضع خطه للانتقام مستخدماً ثروته الهائلة لتحقيق أهدافه في مطاردة الذين ظلموه. لقد تحول إلى قدر يلاحق ضحاياه، وتمضي الرواية لتخبرنا أن خطة السجين السابق تنجح، وإنه أخيراً استطاع تحقيق العدالة الغائبة.. ويعود في النهاية ليكتشف عن نفسه بعد رحلة عاشها مع اسماء وهمية ومؤامرات كان يخطط لها بالخفاء، ليلتقي أخيراً بخطيبته مرسيدس ليعلم لها انه لا يزال يحبها ويتمنى الارتباط بها.

نشر الكسندر دوماس الأب روايته "الكونت دي مونت كريستو" عام 1844، في ذلك العام توفت الفتاة ماري دوبليسيس عن عمر 23 لم تمهلها طويلاً، كانت قد أخبرت

فكرت بقرأ بالملابس الكاملة



فكرت بقرأ بالملابس الكاملة

في الثلاثين من تشرين الأول عام 2002، وفي باريس، امتد بساط إلى البانثيون "مقبرة العظماء". وعلى أنغام النشيد القومي الفرنسي، كان الحرس الرئاسي يسير ببطء، كانت الآلاف التي وقفت تشارك في المشهد المخير تنثر الزهور عند مرور الموكب الذي يتكون من أعضاء الأكاديمية الفرنسية. وعند اقتراب الموكب من البانثيون انتشر الطلاب وتطلعو إلى المنصة المقامة تحت القبة الكبرى التي جلس عليها أعضاء الحكومة وعلى رأسهم الرئيس جاك شيراك، الذي كان قد وقع مرسومًا جمهورياً لنقل رفات دوماس الأب من قريته في الجنوب الفرنسي إلى مقبرة العظماء، ليدفن إلى جوار فولتير وروسو وفكتور هيجو.

في رحلته الأخيرة يمر جثمان الكسندر دوماس بقصر مونت كريستو الذي تحول إلى متحف، حيث يمضي ليلة واحدة فيه، يستعيد مع جدران القصر الأحداث التي صاغها كاتب عاش ومات من أجل الكتابة ومغامرة الحياة.

الكونت دي مونت كريستو التي قرأتها، سحرتني منذ اللحظة الأولى، ولم ينفع فيما بعد انني اكتشفت انها عمل يتسم بالبساطة وإن احداثها لا تختلف عن أي فيلم عربي بالابيض والاسود مليئة بالمشاهد الميلودرامية والدموع والأهات، فهي برغم ذلك شغلت النقاد بسبب انها لاقت اقبالا كبيرا في مختلف العصور، ولاتزال على قائمة الكتب الأكثر مبيعا.

تدور أحداث رواية "الكونت دي مونت كريستو" حول البحار إدمون دانتيس، الذي نراه في الصفحات الأولى، وهو يستعد للزواج، إلا أن حادث القاء القبض عليه بتهمة مناصرة نابليون، ودمر مخططاته، وخلال الاثني عشر عاما التي قضاه في الحبس كان يؤمن انه بريء مما نسب إليه من تهم، وأن سبب سجنه إنما هي مؤامرة حاكها ثلاثة أشخاص، كان لكل منهم سبب للخلف منه. الأول فرنان الذي كان ينافسه على خطيبته مرسيدس، والثاني انغلار منافسا له في أعماله، أما الثالث فكان القاضي فيلغور الذي أيقن منذ اللحظة الأولى ان القضية ستعود عليه بقوائد كثيرة إن هو حكم على إدمون. وخلال سنوات حبسه الطويلة

في بلد غريب وبعيد، وأنخني عالماً مسحوراً، وتكت وأنا ألتهم صفحات الرواية وأتخيل نفسي أدخل إلى شوارع باريس التي تدور فيها حكاية السجين إدمون وانني التقى بأناس أشعر بانني قريب منهم، هكذا قرأت أول رواية مثل طفل يمتلي بهشة من عجائب العالم. لم أكن أعرف أن سياسياً مثل لينين كان يصح لمعارفة بان روايته المفضلة تظل "الكونت دي مونت كريستو" وإن هذا الكاتب الذي حصد الشهرة والمجد باع ذات يوم كل ما يملك ليشتري بنادق ساهمت في تحرير وتوحيد إيطاليا، وإنه كان يطلق عليه لقب ملك المسلسلات الروائية التي علمت الشعب الفرنسي قراءة التاريخ من خلال الأدب حتى أن دار النشر التي تولت إصدار أعماله في القرن التاسع عشر، كتبت على غلاف الطبعة الكاملة "التاريخ كما يرويه دوماس".

في الثلاثين من تشرين الأول عام 2002، وفي باريس، امتد بساط إلى البانثيون "مقبرة العظماء". وعلى أنغام النشيد القومي الفرنسي، كان الحرس الرئاسي يسير ببطء، كانت الآلاف التي وقفت تشارك في المشهد المخير تنثر الزهور عند مرور الموكب الذي يتكون من أعضاء الأكاديمية الفرنسية. وعند اقتراب الموكب من البانثيون انتشر الطلاب وتطلعو إلى المنصة المقامة تحت القبة الكبرى التي جلس عليها أعضاء الحكومة وعلى رأسهم الرئيس جاك شيراك، الذي كان قد وقع مرسومًا جمهورياً لنقل رفات دوماس الأب من قريته في الجنوب الفرنسي إلى مقبرة العظماء، ليدفن إلى جوار فولتير وروسو وفكتور هيجو.



جيرا إبراهيم جيرا

الكونت دي مونت كريستو التي قرأتها، سحرتني منذ اللحظة الأولى، ولم ينفع فيما بعد انني اكتشفت انها عمل يتسم بالبساطة وإن احداثها لا تختلف عن أي فيلم عربي بالابيض والاسود مليئة بالمشاهد الميلودرامية والدموع والأهات، فهي برغم ذلك شغلت النقاد بسبب انها لاقت اقبالا كبيرا في مختلف العصور، ولاتزال على قائمة الكتب الأكثر مبيعا.

إحدى صديقاتها انها تشعر دائماً بان حياتها سنعود من جديد، ولم تكن تدري أن هناك مؤلفاً شاباً أراد ان يقلد والده الأديب المشهور فقرر أن يكتب قصة هذه الفتاة التي شغلت البلاط الفرنسي بجمالها، لينشر عام 1848 روايته "غادة الكاميليا"، وأصر الشاب أن يطلق على نفسه اسم "الكسندر دوماس الابن". كان الابن أحد الأطفال غير الشرعيين للكاتب الشهير، الجميع يعامله كفتى منبؤ، إلا انه كان شديد الإعجاب بشخصية والده، فاختار أن يسير على نفس الدرب.

اذن هذه هي الرواية، وفي ذلك الوقت لو طلب مني أن أكتب تعريفاً عن هذه الرواية لاختصرته بعبارة "ممتعة". في رسالة يبعثها الكاتب الإنكليزي مالكولم لاوري الى ناشره يشرح له فيها المغزى من كتابة روايته الشهيرة (ما تحت البركان) : " يمكن ببساطة قراءتها على انها قصة ستستفيد منها إن لم تتجاوزها، ويمكن اعتبارها موسيقى ساخنة، قصيدة، أغنية حبها ويتمنى الارتباط بها.

نشر الكسندر دوماس الأب روايته "الكونت دي مونت كريستو" عام 1844، في ذلك العام توفت الفتاة ماري دوبليسيس عن عمر 23 لم تمهلها طويلاً، كانت قد أخبرت

فكرت بقرأ بالملابس الكاملة



فكرت بقرأ بالملابس الكاملة

في الثلاثين من تشرين الأول عام 2002، وفي باريس، امتد بساط إلى البانثيون "مقبرة العظماء". وعلى أنغام النشيد القومي الفرنسي، كان الحرس الرئاسي يسير ببطء، كانت الآلاف التي وقفت تشارك في المشهد المخير تنثر الزهور عند مرور الموكب الذي يتكون من أعضاء الأكاديمية الفرنسية. وعند اقتراب الموكب من البانثيون انتشر الطلاب وتطلعو إلى المنصة المقامة تحت القبة الكبرى التي جلس عليها أعضاء الحكومة وعلى رأسهم الرئيس جاك شيراك، الذي كان قد وقع مرسومًا جمهورياً لنقل رفات دوماس الأب من قريته في الجنوب الفرنسي إلى مقبرة العظماء، ليدفن إلى جوار فولتير وروسو وفكتور هيجو.

في رحلته الأخيرة يمر جثمان الكسندر دوماس بقصر مونت كريستو الذي تحول إلى متحف، حيث يمضي ليلة واحدة فيه، يستعيد مع جدران القصر الأحداث التي صاغها كاتب عاش ومات من أجل الكتابة ومغامرة الحياة.